

بحث بعنوان : إسهامات القرآن في المنهج العلمي .

مقدم من: د. خالد امحمد فرج الوحشي .

قسم الفلسفة - كلية الآداب الزاوية - جامعة الزاوية "ليبيا"

المقدمة :

يقوم المنهج المعرفي في القرآن الكريم على منهج إيماني، يهدف إلى التسليم ببدايات الوحي، وأحكامه في الوجود الدنيوي والأخروي، وفي أحكامه القضائية والكونية، وهو منهج عقلي يعتدّ بأحكام العقل كما أنه منهج واقعي لا يلغي الوجود الحسي من اعتباره في بناء معرفة يقينية وعلمية، فهو إذن منهج يجمع بين الوحي، والعقل، والحسن، فالوحي المقروء والمشاهد يمدّ الإنسان بالمعرفة، بينما العقل والحواسّ يقوم كلٌّ منهما بدوره في إدراك المعلومات، وفي صياغة المعرفة وتفهمها .

وعليه يمكن أن نحمل مصادر المعرفة القرآنية في مصدرين اثنين مهمين وهما، الحواسّ، والملاحظة العلمية والتجربة من ناحية، والعقل من ناحية أخرى، علماً بأنّ الحقيقة لا يمكن أن نصل إليها عن طريق الأسلوب العقلي البعيد عن الملاحظة والمشاهدة العلمية، من هنا كان الربط بين المنهج التجريبي والعقلي ومن ثم لا تقوم المعرفة القرآنية على القياس العقلي وحده الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿ فَأَعْتَبُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾^١، بل تكون الملاحظة العلمية أسلوباً مقررّاً للبحث، والفضل في هذا للقرآن وحده .

وفي البداية لا بد لنا من توضيح معنى المنهج والعلم في الاصطلاح القرآني قبل الحديث عن مصادر المعرفة القرآنية .

أ- المنهج في الاستعمال القرآني

لقد وردت الإشارة إلى المنهج في القرآن الكريم في موضع واحد عند حديث القرآن عن الكتب السابقة وموقف القرآن منها، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب حيث يقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ

^١ سورة الحشر، الآية ٢ .

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢﴾ .

يقول ابن عباس رضي الله عنه شرعة ومنهاجاً أي سبيلاً وسنة، فالمنهاج هو السبيل أي الطريق الواضح، والشرعة والشريعة بمعنى واحد، وشرع سن ٣٥ .

العلم في الاصطلاح القرآني

إن المتتبع لمفهوم العلم في القرآن الكريم يجد أنه ليس قاصراً على العلم الديني أو الأخروي، أو عالم الغيب .

فقد استعمل القرآن العلم بمعناه المطلق الذي يشمل كل علم قال جلّ جلاله: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٤٤ .

لا تعلمون شيئاً هنا في بداية خروج الإنسان إلى الوجود، وكذلك في أواخر حياته إذا بلغ عتياً أو أُرذل العمر، وكلمة علم هنا نكرة تفيد العموم المستغرق لعلم كل شيء .

واستعمل العلم بظاهر الحياة الدنيا بكل جوانبها الطبيعية والإنسانية أي العالم كله قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ٥٥ ، فهذا العلم الدنيوي مقابل العلم الأخروي، واستعمل العلم في علم الحساب والفلك ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٦ ، ومن منزلة العلم في القرآن أن الإنسان يتوصل به إلى

٢ سورة المائدة، الآية ٤٨ .

٣ ابن كثير، (٢٠٠٠م)، تفسير القرآن الكريم، ج٣، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مصر: مؤسسة قرطبة، ص ١٢٩ .

٤ سورة النحل، الآية ٧٨ .

٥ سورة الروم، الآية ٧ .

٦ سورة يونس، الآية ٥ .

أن يكون من الشهداء على الحق، والدليل قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^٧

وفي جانب آخر نجد أن الله يرفع أهل العلم في الآخرة وفي الدنيا، أما في الآخرة فإن الله يرفعهم درجات بحسب ما قاموا به من الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ والعمل بما علموا، وفي الدنيا يرفعهم الله بين عبادته بحسب ما قاموا به قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾^٨.

هذه بعض الآيات التي تدلّ على حثّ القرآن على العلم، وعلى منزلة العلماء، وغيرها الكثير من الآيات التي تتناول مفهوم العلم .

أ- الحواس

تُعَدُّ الحواسّ وسيلة من وسائل الإدراك المؤدّية إلى اكتساب المعارف والعلوم، وقد اهتمَّ بها القرآن الكريم وعدّها من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان وأمتن بها عليه، ودعا الناس إلى استعمالها لا اكتساب العلم النافع في الدين والدنيا، فقد أمر الإنسان بالنظر إلى نفسه وما حوله ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾^٩، فقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾^٩ تنبه الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لان من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى^{١٠}، وأن يشكر الله تعالى على النعم التي وهبها الله تعالى له فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^{١١}، في هذه الآية يذكر الله تعالى مننه على عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يبصرون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح،

^٧ سورة آل عمران، الآية ١٨ .

^٨ سورة المجادلة، الآية ١١ .

^٩ سورة الطارق، الآيات ٥-٧ .

^{١٠} ابن كثير، (٢٠٠٠م)، تفسير القرآن العظيم، ج٤، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، القاهرة: مؤسسة قرطبة، ص ٣١٦ .

^{١١} سورة النحل، الآية ٧٨ .

وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها، ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه، وبصره، وعقله، حتى يبلغ أشدّه، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان؛ ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكلّ جارحة، وعضو وقوة على طاعة مولاه^{١٢}، كما أخبر القرآن أن من أسباب إخفاق الناس في معرفة الحقائق، والالتزام بها، إهمال نعمة الحواس، وعدم استخدامها والاستفادة منها في مجال المعرفة والعلم يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^{١٣}، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو نسمع ما أنزل الله من الحقّ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به ، فما كان لنا عقل يرشدنا إلى إتباعهم^{١٤} .

وفي جانب آخر نجد أن القرآن قد وجّه العقول إلى النظر في الطبيعة بأوسع معانيها وبأخصّ وأعم ظاهراتها، وهو بهذا يريد منا أن نبدأ بدراسة الوقائع والمشاهدات التي تعمل على إيقاظ التفكير ولا نبدأ بمجردات الذهن وأوهامه، وتظهر الروح القرآنية على أحسن صورها في فتح طريق البحث في هذا المصدر بتوجيه القرآن العقل إلى النظر في الكون ومشاهدة الطبيعة مبتدئاً بالعادي البسيط من ظاهراتها، ومنتهاً إلى أمور كونية كبرى .

ابتدأ القرآن بالدعوة إلى النظر في هيئة خلق الإبل، وارتفاع السماء، وانتصاب الجبال، وانبساط الأرض قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾^{١٥}، في هذه الآية يقول الله تعالى امرأ عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾^{١٦} فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾^{١٧} أي جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية؛ لتلا تמיד الأرض بأهلها وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن، ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾^{١٨} أي كيف بسطت ومدّت

^{١٢} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٣٣٦ .

^{١٣} سورة الملك، الآية ١٠ .

^{١٤} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١٤، ص ٧٣ .

^{١٥} سورة الغاشية، الآيات ١٧-٢٠ .

ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك^{١٦}، فالقرآن حين يدعونا إلى البحث في كيفية خلق الحيوان والسماء والأرض والجبال والكواكب إنما يمدنا بالمنهج الصحيح للبحث الاستقرائي في علوم شتى كعلوم الحياة، والفلك، والجيولوجيا، والجغرافيا وغيرها .

ثم يتناول القرآن ظاهرات الحياة في النبات والحيوان والسماء والأرض نشأتها وشكلها وتضاريس الأرض وأنهارها، وبحارها ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبَصَّرَهُ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾^{١٧} في هذه الآية يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم، من خلق السماء وتزينها بمصاييح، والأرض وما فيها من جبال رواسي كل هذه الآيات العظيمة تبصره ودلالة وذكرى لكل عبد خاضع وخائف رجل رجاع إلى الله عز وجل^{١٨}، ثم ينبه القرآن بعد ذلك إلى مسائل كونية كبرى في الكون ومراحل ظهوره من التحام ووحدة إلى انفتاق وتشكل متنوع ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾^{١٩}، لقد حرص القرآن عن التحدث عن آيات الكون حتى يتمكن الناس من الإحاطة علماً بطبائع الأشياء والعلاقات بينها، والقوانين التي تحكم ذلك، بما يؤدي في النهاية إلى التأكد من وجود خالق الكون، فأيات الكون هي الظاهرات الطبيعية، التي هي في حقيقتها آيات الخالق، ليس هذا فحسب، بل إن القرآن يُشير في أكثر من موضع إلى ناحية الكم والكيف في الأشياء، وتدُلُّ كلمة قدر ومقدار وتقدير على الكم في الأشياء، ونظامها والمقصود هنا الكم الزماني والمكاني الخاص بالحركة والحجم، أو الترتيب والارتباط كما في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^{٢٠}، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾^{٢١} .

^{١٦} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١٤، ص ٣٣٣ .

^{١٧} سورة ق، الآيات ٦-٨ .

^{١٨} انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١٣، ص ١٨٣ .

^{١٩} سورة الأنبياء، الآية ٣٠ .

^{٢٠} سورة الرعد، الآية ٨ .

أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قدره وتقديره وتسخيره وتدييره^{٢٢}، كما أنه يذكر الكيف في مواضع كثيرة بمعنى هيئة خلقه الأشياء وتكوينها وصفاتها ووظائفها، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾^{٢٣}، هنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائماً لا يزول^{٢٤}.

من خلال ذلك يتبين لنا أن القرآن يريد من الإنسان أن يجمع بين النظرة العلمية الفاحصة في الأشياء أي التحليل الاستقرائي، و النظرة التركيبية، التي يمكن أن تفيده في حياته، ويصل من جهة أخرى إلى خالق الكون فيؤمن بالخالق ويعظمه ويشكره، وفي موضع آخر نجد أن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى النظر في كل الأشياء المحيطة به ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقَضَبًا * وَزَيَّنَّاهَا وَخَلَّا * وَحَدَائِقَ عُلبًا﴾^{٢٥}.

نلاحظ هنا تأكيد القرآن لجانب النظر والملاحظة، حتى يندفع الناس إلى تأمل نعم الله الكثيرة وكيف خلقت، خاصة ما يتعلق منها بمصادر غذائهم فعندئذ يؤمنون بالله خالقها، ويشكرون له فضله، وذلك كما يقول ابن القيم الجوزية استدلالاً بالنظير على النظير^{٢٦}.

ويلاحظ المتتبع لكل ما أوردناه أن القرآن قد حدد عناصر المنهج الاستقرائي بالحس والمشاهدة، والنظر في مخلوقات الله من ظواهر إنسانية وغير إنسانية، فالقرآن أشار إلى أن

^{٢١} سورة الفرقان، الآية ٢ .

^{٢٢} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١٠، ص ٢٨٤ .

^{٢٣} سورة الفرقان، الآية ٤٥ .

^{٢٤} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١٠، ص ٣١٠ .

^{٢٥} سورة عبس، الآيات ٢٤-٣٠ .

^{٢٦} ابن قيم الجوزية، (١٩٦٩م)، أعلام الموقعين، ج ١، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ص ١٥٩ .

الحواسّ هي وسيلة الاتصال التي يتعامل بها الإنسان بينه وبين محيطه الخارجي، ولعل ما ذكرناه من آيات وغيرها كثير تدل على مكانة الحواسّ ودورها في المعرفة .

ب- العقل

دعا القرآن إلى استخدام العقل واهتمّ بمخاطبة ملكات التفكير والتعقل عند الإنسان، وتبدو تلك المكانة التي يمثلها العقل في الدعوة الصريحة إلى التفكير والنظر، وطلب المعرفة والعلم وقد حضّ القرآن على التدبر في مخلوقات الله، ووصف القرآن الذين يعطلون عقولهم بالدواب كما في قوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^{٢٧}

هنا يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته، والتشبه بالكافرين به المعاندين له لئلا يكونوا كالدواب ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ ﴾ أي عن سماع الحقّ، وعن فهمه، ولهذا قيل ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام^{٢٨}، وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ غُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^{٢٩}، هنا يشبه الله تعالى الذين كفروا بما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنها تسمع صوته فقط^{٣٠}، نفهم من هذه الآيات السابقة أن القرآن يتوجه باللائمة على الذين لا يستخدمون العقل، ويعطلون عقولهم عن التفكير والتدبر في آيات الله ومخلوقاته، فالقرآن يدعو ويحثّ على استخدام العقل .

كما نجد أن القرآن سعى إلى تحرير العقل من أي عائق، أو قيد يحول بينه وبين أن يقوم بوظيفته مثل التقليد الأعمى للآباء، أو اتباع الهوى، أو الأخذ بالظن من غير يقين، فالتقليد إلغاء للعقل وتعطيل له عن أداء وظيفته؛ لذا ذمه القرآن، كما نجد أن القرآن ذمّ

^{٢٧} سورة الأنفال، الآية ٢٢ .

^{٢٨} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٧، ص ٤٥ .

^{٢٩} سورة البقرة، الآية ١٧١ .

^{٣٠} ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ١٤٧ .

اتباع الهوى؛ لأن ذلك يفسد الحكم على الأشياء كما يفقد الباحث عن الحق الموضوعية في نظره إلى الأشياء وحكمه عليها قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾^{٣١}، كما نجد أن القرآن حرص على استقامة منهج النظر العقلي لذلك ذمَّ بناء المعلومات على الظن، لان الظن لا يفيد يقيناً ولا علماً، ولا يغني عن الحق شيئاً قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^{٣٢}، فالقرآن أكد على قيام العلم الصحيح، وتأسيس اليقين على أساس من النظر والاستدلال العقلي السليم ليس هذا فقط، بل نجده يوجه العقول إلى استخدام وسائل وأساليب في الجدل تمثل في جملتها منهجاً تميّز به القرآن، وأصبح أساساً بنى عليه المسلمون مناهجهم في البحث، وطرقهم في الاستدلال، وقد سلك القرآن في مخاطباته أساليب شتى وتفنن في ضروب الهداية، وطرق الإقناع لاختلاف مشارب الناس، وتباين مقاصدهم وتفاوت مداركهم، ومن بين الطُّرق والأساليب التي وردت في القرآن الكريم .

١- السبر والتقسيم

وهو نوع من أنواع الجدل يتخذه المجادل سبيلاً لإبطال دعوى من يجادله، ويكون ذلك بمحصر أوصاف أو أقسام الموضوع الذي يجادل فيه، ثم يبين أنه ليس في أحد هذه الأقسام أو الأوصاف خاصية تسوغ قبول الدعوى فيه، فتبطل دعوى الخصم عن طريق هذا الحصر المنطقي للموضوع^{٣٣} .

ومن أمثلة هذا المنهج في القرآن قوله تعالى ﴿تَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

^{٣١} سورة الأنعام، الآية ١١٩ .

^{٣٢} سورة الحجرات، الآية ١٢ .

^{٣٣} انظر زاهر الألعي، (١٤٠٤هـ)، مناهج الجدل في القرآن، ط٣، الرياض: مطابع الفرزدق، ص٧٤، وكذلك انظر السيوطي، (١٩٧٣م)، الإتقان في علوم القرآن، ج٤، بيروت، المكتبة الثقافية، ص ٥٥ .

لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ^{٣٤}، في تفسير هذه الآية يقول السيوطي: إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة و إناثها تارة أخرى، ردَّ الله تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم إذا بيَّنت الآية أن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى، فمما جاء تحريم ما ذكرتم؟ أي ما علتها؟ لا يخلو الأمر إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة وهو التعبدى بأن أخذ ذلك عن الله تعالى والأخذ عن الله تعالى، إما بوحى وإرسال رسول، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن واحد منها .

الأول : يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حراماً .

الثاني : يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً .

الثالث : يلزم عنه تحريم الصنفين معاً .

فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم والأخذ عن الله بلا وساطة باطل، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله^{٣٥} .

٢ - الأقيسة الإضمارية

المقصود بهذه الأقيسة هي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبىء عن المحذوف^{٣٦}، وهذا الأسلوب شائع في القرآن، فقد ذكر الغزالي أن القرآن مبناه الحذف والإيجاز، أي في شكل الأقيسة أقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^{٣٧}، وسياق الدليل أن آدم خلق من

^{٣٤} سورة الأنعام، الآيات ١٤٣ و١٤٤ .

^{٣٥} السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٤، ص٥٥ .

^{٣٦} الألمعي، مناهج الجدل في القرآن، ص٧٦ .

^{٣٧} سورة آل عمران، الآية ٥٩ و٦٠ .

غير أب ولا أم، وعيسي خلق من غير أب، فلو كان عيسي إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابناً، ولا إلهاً باعترافكم، فعيسي أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً^{٣٨}.

٣- قياس الخلف

ويقصد به إثبات المطلوب بإثبات نقيضه، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحلّ من أحدهما كالمقابلة بين الوجود والعدم، وقد ورد هذا القياس في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^{٣٩}، فإذا ثبت أن القرآن ليس فيه اختلاف ولا تضارب في مقرراته وعباراته فإنه يثبت النقيض، وهو أنه من عند الله تعالى^{٤٠}.

٤- قياس التمثيل

ويقصد به إلحاق أحد الشيئين بالآخر وذلك بأن يقيس المستدلّ الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند مَنْ يخاطبه، أو على أمر بديهي لا تنكره العقول، وبين الجهة الجامعة بينهما^{٤١}، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^{٤٢}، ففي هذه الآيات عقدت المشابهة والمماثلة بين ابتداء الخلق وإعادته، فمن خلال ما ورد نفهم أن المسلمين استقوا القياس من القرآن الكريم، فلو أخذنا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^{٤٣}.

^{٣٨} محمد أبو زهره، المعجزة الكبرى، ص ٣٩٨.

^{٣٩} سورة النساء، الآية ٨٢.

^{٤٠} محمد أبو زهره، المعجزة الكبرى، ص ٤٠١.

^{٤١} الأمعى، مناهج الجدل في القرآن، ص ٧٨.

^{٤٢} سورة يس، الآيات ٧٨-٨١.

^{٤٣} سورة المائدة، الآيات ٩٠ و٩١.

إن المتتبع لهذا النصّ الكريم يجد أن هذا النص يدلّ صراحة على تحريم الخمر، مع بيان المعنى الذي يدعو إلى هذا التحريم وهو ما يتوجب على شريكها من المفسد الدينية والدينيوية، وأي مفسدة أعظم من إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وهي السلاح القاتل للراحة في هذه الحياة، والخمر عند بعض الفقهاء اسم لشراب خاصّ، وهو المتخذ من عصير العنب من غير طبخ بالنار وعلى هذا لا تكون الآية متناولة لغيره من الأشربة الأخرى كالنبيذ ونحوه، ولكن هذه الأشربة يترتب عليها ما يترتب على الخمر في حكمه، وهو الحرمة بطريق القياس، فالخمر في هذا المثال أصل أو مقيس عليه، والنبيذ فرع أو مقيس عليه، وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس علة وتحريم الخمر حكم دلّ النص عليه، وتحريم النبيذ هو الحكم الثابت بالقياس .

يتضح مما سبق من آراء، وبصورة جلية لا تدع مجالاً للشك أنّ القرآن الكريم فيه استخدام للمنهج العلمي كما وضحنا ، فالقرآن هو الذي أرسى قواعد هذا المنهج .

المراجع :

-: القرآن الكريم .

-: ابن كثير، (٢٠٠٠م)، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون،
مصر: مؤسسة قرطبة .

-: ابن قيم الجوزية، (١٩٦٩م)، أعلام الموقعين، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، القاهرة: دار
الكتب الحديثة .

-: زاهر الألمي، (١٤٠٤هـ)، مناهج الجدل في القرآن، ط٣، الرياض: مطابع الفرزدق .

-: السيوطي، (١٩٧٣م)، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، المكتبة الثقافية .